كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

مرحلة الدكتوراه/ لغة

# معاني الأبنية

## المغايرة والمناسبة في الأبنية المتماثلة في القرآن الكريم

أ.د. خولة محمود فيصل

إنّ البحث في دلالة الأبنية المتماثلة، بحث في التَّنوُّع الأسلوبيّ؛ لأنَّه مرتبط بالتَّحليل اللُّغويّ، فالمغايرة بين الألفاظ ظاهرة أسلوبيَّة خاضعة للسِّياق، فمتى كان المقام مقتضيًا للمغايرة، ومراوحة الأسلوب بين فنٍّ وفنٍّ وجدنا النَّظم القرآنيَّ منسجمًا مع هذا التَّغايُر بأبلغ سبيل، ومتى كان المقام مقتضيًا لاستمرار الأسلوب على طريقة، أو فنٍّ واحد وجدت البلاغة متحقِّقة في النَّظم.

وقد أشار الخطيب الإسكافيُّ إلى هذه المسألة فقال: " إذا أورد الحكيم – تقدَّست أسماؤه – آية على لفظة مخصوصة، ثمَّ أعادها في موضع آخر من القرآن، وقد غيَّر لفظة عمَّا كانت عليه في الأولى فلابد من حكمة تُطلب، وإن أدركتموها فقد ظفرتم، وإن لم تدركوها فليس لأنَّه لا حكمة هناك، بل جهلتم " .

كما أنَّ ما يرد في الكتاب العزيز "ممَّا ظاهره التَّكرار زيادة فائدة، أو تتميم معنى، أو لبناء غيره من الكلام عليه.

**اختلاف أبنية الألفاظ**

**أولاً : المغايرة بين التفضيل واسم الفاعل**

جاءت صيغة ( أفعل ) التَّفضيل في قوله تعالى: ﴿ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: 22] ، وصيغة اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [النحل: 109] , وقد اختلفت نظرة العلماء في بيان وجه المغايرة بين الصيغتين في سياقيهما فذهب الخطيب الإسكافي: معتمدًا على السِّياقين اللُّغويّ والحاليّ – إلى أنَّ سياق آية هود تقدَّمها قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ ﴾ [هود: 20] ، فهؤلاء ضُوعف لهم العذاب؛ لأنَّهم كما وصفهم اللّه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: 19] ، فهم لم يكتفوا بضلالِهم، وإنَّما يضلون غيرهم؛ ليكونوا في الضَّلال سواء؛ فاستحقُّوا تضعيف العذاب، ولمَّا كانوا استحقُّوا الوصف بالخسران بصيغة التَّفضيل.

أمّا سياق آية النحل فلم يخبر عن الكفار أنهم مع ضلالهم أضلوا من سواهم، وإنما جاء وصفهم بقوله سبحانه: ﴿ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [النحل: 107] . فهؤلاء لم يُذكر فيهم ما ذكر في آية هود من مضاعفة العذاب، كما أنّ فواصل الآيات قبلها، مثل:

الكافرين، والغافلون ناسب مجيء (الخاسرون)، وقد ذهب الكرماني إلى ما ذهب إليه الإسكافي، ونقل عنه، وأرجعَ سبب تخصيص كلّ صيغة في تراكيبها إلى السِّياق الذي سيقت فيه؛ "لأنَّ هؤلاء صدُّوا عن سبيل اللّه وصدّوا غيرهم فهم الأخسرون يُضاعف لهم العذاب، وفي النَّحل ( صدّوا فهم الخاسرون ) ". وإلى هذين التَّحليلين أشار : الأنصاريُّ، والألوسيُّ، بينما يرى ابن الزُّبير أنَّ آية هود سبقها ما يُفهم المفاضلة (﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: 17] ، أي: من كان على بينة من ربه ليس كمن كفر وجحد وكذَّب الرُّسل، ثمَّ جاء قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [هود: 18] ، فهذه آية مفاضلة – أيضا – فقد جاء باسم التَّفضيل أظلم، فناسب هذا لفظ الأخسرون بصيغة المفاضلة، ولو ورد الخاسرون لحصل: التَّنافُر في النَّظم والتَّبايُن في السِّياق.

وأمَّا سياق آية النَّحل فلم يقع قبلها تفاضُل وتفاوُت – كما في سياق آية هود – وإنَّما فواصل هذه الآيات التي قبلها ( الكاذبون ، الكافرين ، الغافلون ) كلها جاءت بصيغة: اسم الفاعل المجموع جمع السَّلامة، فناسب مجيء (الخاسرون)، ولم يكن هناك ما يستدعي المفاضلة لا من جهة المعنى، ولا من جهة اللَّفظ فتناسبت الآيات في سياقها وفواصلها.

نلاحظ من تحليلي الإسكافيّ، وابن الزَّبير أنَّهما اتَّفقا في تفعيل السِّياق اللغُّويّ القائل بالتَّوفيق بين الفواصل، أمَّا سياق الحال فتأويل ابن الزُّبير يختلف عن الإسكافيّ، ومن شايعه، فعند ابن الزُّبير أنَّ آية هود جاءت بصيغة التَّفاضُل لما سبقها من التَّفاضُل والتَّفاوُت، ولمَّا لم يكن قبل آية النَّحل مفاضلة جاءت بصيغة اسم الفاعل المجموع جمع مذكَّر سالمًا موافقة لِمَا سبقها من سياقات.

ووظَّف أبو حيَّان صيغة التَّفضيل في تركيبها فاستلهم قولا لطيفًا، فقال – عند آية هود–: "ولما كان خسران النَّفس أعظم الخسران حكم عليهم بأنَّهم هم الزَّائدون في الخسران على كلِّ خاسر".

وتحدّث ابن عاشور عن وجه المغايرة بين الصِّيغتين فذكر أنَّ آية هود جاءت بصيغة المفاضلة؛ لبيان أنّ خسارتهم الأخرويَّة أعظم من خسارتهم الدَّنيويَة، إذ دلّ السياق في سورة هود على ذلك ، فكان المقصود بيان أنَّ خسارتهم في الآخرة أشدَّ من خسارتهم في الدُّنيا".

**ثانيًا : المغايرة بين اسم الفاعل وصيغة المبالغة**

تغايرت الصِّيغتان ( ساحر وسحَّار ) في سياقين، الأولى في سياق قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: 112] ، والثانية في قوله عز وجل: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 37] , وقد أشار الزَّمخشريُّ لسبب تخصيص كلِّ صيغة في تركيبها بأنَّ قوم فرعون عارضوا قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 109] بقولهم: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 37] فجاؤوا بصيغة المبالغة سحَّار؛ ليطمئنوا نفسه، ويسكِّنوا بعض قلقه .

واستفاد ابن الجزريّ من إشارة الزَّمخشريّ من دلالة الصِّيغتين في السِّياق وزاد الأمر توصيفًا فذكر أنَّ القرَّاء: " اتَّفقوا على حرف الشُّعراء أنَّه ﴿ سَحَّارٍ ﴾؛ لأنَّه جواب لقول فرعون فيما استشارهم فيه من أمر موسى بعد قوله: ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ فأجابوه بما هو أبلغ من قوله؛ رعاية لمراده بخلاف التي في الأعراف فإنَّ ذلك جواب قولهم فتناسب اللَّفظان"

وعلَّل ابن جُمَّاعة مجيء صيغة المبالغة ﴿سَحَّارٍ﴾ في آية الشُّعراء؛ بتقدُّم ﴿بِسِحْرِهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: 35] ، وأمَّا في الأعراف فلم يأت لفظ ﴿بِسِحْرِهِ﴾ في قوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف: 110] ، فناسب مجيء ساحر.

ونقل الألوسيُّ توصيفات في التَّفريق بين ( سحّار و ساحر ) فسحَّار بصيغة المبالغة يكون لمن يريد السِّحر، وساحر، وساحر بصيغة اسم الفاعل يكون لمن سحر في وقت دون وقت، وقيل: إنَّ السَّاحر للمبتدئ في صناعة السِّحر، والسَّحَّار هو: المتمرِّس في السِّحر والمنتهى الذي يُتعلَّم منه ذلك.

وهذا التَّفريق الذي نقله الألوسيُّ، هو تفريق في العموم بين السَّاحر والسَّحَّار، وليس مختصًّا في سياق آيتي الأعراف والشُّعراء.

وجعل ابن عاشور( السَّحَّار ) مرادفًا للسَّاحر في الاستعمال اللُّغويّ، وأنَّ صيغة فعَّال في قوله: سحَّار جاءت هنا للنَّسب دلالة على الصِّناعة، وذلك مثل: النَّجَّار، والقصَّار، وممَّا يدلُّ على ذلك مجيء عليم

وحاصل دلالة التَّغاير بين الصِّيغتين في كُلٍّ: أنَّ الفاعل من السِّحر: ساحر لسياق قوله تعالى: ﴿ ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: 120] ، و ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: 40] ، كما أنَّ السِّحرة جمع ساحر، ككتبة وكاتب، وفجرة وفاجر، أمَّا سحَّار فقد وُصِفَ بلفظ: عليم ووصفه يدلُّ على تناهيه فيه، وحذقه به؛ فناسب لذلك أن يُذكروا بالاسم الدّال على المبالغة في السِّحر .

**ثالثاً –المغايرة بين الاسم والفعل في الأبنية المتماثلة**

**بين الفعل المضارع واسم الفاعل:** في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [الأنعام: 95] . إذ نجد المعطوف (مُخرج) اسما، على الفعل (يخرج) , وفي سياق قوله تعالى: ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ [يونس: 31] و قوله : ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ [الروم: 19] إذ جاء المعطوف( يخرج )، والمعطوف عليه متماثلين .

وقد ظهرت المغايرة في السّياقين في أحوال المسند بين صيغتي الفعل، والاسم وهذه المغايرة تمثَّل في النّص نوعًا من أنواع التَرابط؛ لأنَ الأصل أن يعطف الفعل على الفعل، والاسم على الاسم.

وقد اختلفتْ نظرة اللُّغويين والمفسّرين في توضح تلك المغايرة في قوله تعالى: ﴿وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ﴾ أهو معطوف على الفعل الذي قبله أم على اسم الفاعل في: (﴿فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ ؟ فذهب الأكثرون منهم إلى أنّه معطوف على اسم الفاعل وهذا ما أفصح به الخطيبُ الإسكافي، ووافقه الزمخشري؛ اعتمادا على السِّياق اللُّغويّ السَّابق في قوله: ﴿فَالِقُ ٱلۡحَبِّ﴾ واللَّاحق في قوله: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ [الأنعام: 96] ، وعدَّ ذلك من باب التَّناسُب والتَّناسق اللَّفظيّ في التَّركيب؛ لذلك نجد الزمخشري يقول: "(ويُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) موقعه، موقع الجملة المبنيَّة لقوله: (وفَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى)؛ لأنَّ فالق الحبِّ والنَّوى بالنبَّات والشَّجر النّاميين من جنس إخراج الحي من الميت؛ لأنّ النامي في حكم الحيوان، ألا ترى إلى قوله تعالى: وَيُحْيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ [الروم: 19]

ويجاري الإسكافي والزمخشري في تحليلهما: الكرماني، وابن جُمَّاعة، ونقل ابن الزُّبير الغرناطي قول الزمخشريّ، وعدَّه من حسناته، كما نقله النَّسفيُّ، وأبو حيَّان، وأبو ريَّان، واقتصر العزّ بن عبد السلام على هذا الوجه ولم يجز غيره، فلا يجوز عطف الاسم على الفعل , وذكر السَّمين الحلبيّ وجهين في اسم الفاعل(مُخرِج):

(1) ما تقدَّم من كونه معطوفًا على (فالق)، وهو بهذا وافق المتقدمين .

(2) أنَّه معطوف على (يخرج)، ويؤول الفعل حينئذ بالاسم .

ويؤكد الرازيُّ هذه المناسبة بين الاسم والفعل، وهي أنّ: " الحيّ أشرف من الميت فوجب أن يكون الاعتناء بإخراج الحي من الميت أكثر من الاعتناء بإخراج الميت من الحيّ؛ فلهذا المعنى وقع التَّعبير عن القسم الأول بصيغة الفعل، وعن الثّاني بصيغة الاسم؛ تنبيها على أنّ الاعتناء بإيجاد الحيّ من الميت أكثر وأكمل من الاعتناء بإيجاد الميت من الحي".

ويفصح الدكتور فاضل السَّامرائي بدلالة أقرب إلى تحليل الرازي وإشارة ابن أبي الإصبع، حيث أفاد أنَّ الفعل يدلُّ على الحدوث والتَّجدُّد، وأمَّا الاسم فيدلُّ على الثّبوت، فاستعمل الفعل يخرج مع الحيّ؛ لأنَّ أبرز صفات الحي الحركة، واستعمل الاسم مخرج مع الميت؛ لأنّ الميت في حالة همود وسكون وثبات.

ومن الصِّيغ التي تتغاير بين الاسميَّة والفعليَّة في سياقهما، صيغتا : ( أنصح وناصح ) فهاتان الصِّيغتان كلتاهما وردتا في قصتين مختلفتين الأولى في سياق قصة نوح – عليه السلام – في قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 62] ، والثَّانية في سياق قصة هود – عليه السلام – من قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: 68] , جاء التَّركيب الأوَّل باستعمال المسند فعلاً: أنصح لكم، وفي التَّركيب الثَّاني جاء المسند اسمًا: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾، فما سرُّ المغايرة بين البناءين؟.

يُرجع الخطيبُ الإسكافيُّ وجه المغايرة إلى أنَّ نوحًا ضُلِّل من قومه، قال تعالى: ﴿ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف: 60] ، وأمَّا هود فَسُفِّه من قومه، قال سبحانه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: 66] ، والضَّلال من صفات الأفعال! والسَّفاهة من صفات النَّفس، وهي معنىً ثابت وضدها الحلم، فلمَّا عيب نوح – عليه السلام – بفعل مذموم نفاه بفعل محمود بل بأفعال محمودة. وأمَّا هود – عليه السلام – فَرُمِي بالسَّفاهة، وهي صفة مذمومة ثابتة فلا يَتحوّل عنها الإنسان سريعًا، فكان المناسب نفي ذلك بصفة أو صفات ثابتة ناصح أمين، أي ثابت في النُّصح لا أنتقل عنه إلى غشَّ.

وأقرب من هذا التَّوصيف لتلك المغايرة ما ذهب إليه ابن جُمَّاعة حيث ذكر أنَّ الضَّلال صفة غير ثابتة فيمكن الخلوص منه سريعًا، وهو يتجدَّد بترك الصَّواب إلى ضده فقُوبل في قول نوح – عليه السلام – بفعل يناسبه وأنصح. وأمَّا هود فقد اتُهم بالسَّفاهة، وهي من الصِّفات اللاَّزمة لصاحبها فقابلها بصفة ثابتة كذلك ناصح أمين.

كما أدرك الفخر الرازيُّ دلالة التَّلوين بين الفعليَّة والاسميَّة على التَّجدُّد والثّبات "فلمّا كان من عادة نوح – عليه السلام – العود إلى تجديد تلك الدعوة في كل يوم، وفي كل ساعة لا جرم ذكره بصيغة الفعل فقال: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ . وأمّا هود فقوله: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ ﴾ يدلُّ على كونه مثبتًا في تلك النَّصيحة مستقرًا فيها.

وعلى طريقة الرَّازيّ في توصيفه يأتي ابن الزُّبير الغرناطيُّ موضحًا الفارق الأساس بين الفعليَّة والاسميَّة في الاستعمال فذكر أنَّ نوحًا في سياق الآية الأولى "بيَّن لهم نصحه واستمراره في إبلاغهم ونصحهم فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: 62] ثُمَّ أتبع بتعريفهم بجهلهم بما عنده من ربه وبعلمه هو بذلك فقال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 62] ، وإنَّما قال: وأنصح، وأعلم؛ ليعلم بتماديه على النُّصح لهم وهم لا يشعرون ولا يهتدون... وأمَّا جواب هود – عليه السلام – فإنَّما أتى في إخبارهم بنصحه وأمانته بالاسم فقال: ناصح أمين، ولم يقل أنصح فيأتي بالفعل؛ ليحصل منه أنَّ ذلك الوصف الجليل لازم له غير مفارق، ولم يكن الفعل ليعطي ذلك، فجاء بالاسم وجعله الخبر عن ضميره الذي هو أنا

ودلالة الصِّيغة الفعليَّة على التَّجدُّد والاستمرار جاء بالتَّأكيد في السِّياق القرآنيّ على لسان نوح – عليه السلام : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ

لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ ﴾ [نوح: 5-9]

ومن ثَمَّ تتمثَّل أمامنا – عمليًا – القيمة الجماليَّة والتَّعبيريَّة للتَّلوين بين الفعليَّة والاسميَّة، ففي قول نوح – عليه السلام – وأنصح ما يدلُّ على التَّجدُّد والاستمرار؛ فإنَّ قومه كانوا يرمونه بالضَّلالة، ومع ذلك لا يترك نصحهم لكراهيته، أو بذاءتهم، فكان – عليه السلام – يُجدِّد في الخطاب والدعوة في كل يوم وساعة في اللَّيل والنَّهار﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا﴾ [نوح 5] فوصفهم إيَّاه بالضَّلال وصف عارض يمكن تركه إلى نقيضه من الهدى، فناسبه الصَّيغة التي تدلُّ على الحدوث، فجاء بعده قوله: وأنصح؛ ليناسب الحدوثُ الحدوثَ , وأما هود – عليه السلام – فقال: ناصح أمين؛ ليدلَّ على أنَّه ثابت في نصحه، وأنَّ النُّصح صفة لازمة له كما يدلُّ على ذلك اسم الفاعل الذي يدلُّ على الثَّبات، والسَّفاهة التي وصف بها: صفة لازمة لصاحبها ثابتة فيه، فأتى بالصِّيغة التي تدلُّ على الثُّبوت ناصح؛ ليناسب الثُّبوتُ الثُّبوتَ.